

فقه اللغة

اسمه وشيء عنه :

هو عبد الملك بن محمد بن اسماعيل أبو منصور الثعالبي النيسابوري لقب بالثعالبي لأنه كان فرساً يخطط جلود الثعالب ويعملها وإذا عرفنا أنه كان يؤدّب الصّبيان في كُتّاب استطعنا أن نقول جازمين أن عمل الجلود لم يكن صناعة يعيش بها ويحيا لأجلها بل كانت من العمال التي يعالجها المؤدّبون في الكتاتيب وهم يقومون بالتأديب والتعليم وما أشبه هذا الحال بحال مؤدبي الصّبيان في مكاتب القرية المصرية في عهد مضى وقد شدّ كل منهم خيوط الصوف إلى رقبتة والمغزل في يده .

وعاش الثعالبي بنيسابور وكان هو ووالد البخارزي صَنَوَيْن لَصِيقَي دار وقريني جوار تدور بينهما كتب الإخوانيات ويتعارضان قصائد المجاوبات . ونشأ البخارزي في حجر الثعالبي وتأدّب بأدبه واهتدى بهديه وكان له أبا ثانيا يحدوه بعطفه ويحنو عليه ويرأف به . ذكر تلك الصلة البخارزي ونقل عن الثعالبي فيما نقل عنه في كتابه " دمية القصر " أشعارا له رواها أبوه عنه إلا أنه لم يذكر لنا شيئا مما جرى بين الشيخين الصديقين .

وكان الثعالبي واعية كثير الحفظ فعرف بحافظ نيسابور وأوتي حظا من البيان بزرّ فيه أقرانه فلقب بجاحظ زمانه وعاش بنيسابور حجّة فيما يروي ثقة فيما يحدّث مكينا في علمه ضليعا في فنه فقصده إليه القاصدون يضربون إليه آباط الإبل بعد أن سار ذكره في الآفاق سير المثل .

ونحن نفتطف هنا جُمَلا نعته بها أعلام الأدب وأصحاب التواليف السائرة .

قال ابن بسام :

كان في وقته راعي تلعات العلم وجامع أشتات النثر والنظم رأس المؤلفين في زمانه والمصنفين بحكم أقرانه طلعت دواوينه في المشارق والمغرب طلوع النجم في الغياهب وتآليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع وأكثر من أن يستوفيهما حدّ* أو وصف أو يوفي حقوقها نظم أو رصف .

وقال البخارزي :

هو جاحظ نيسابور وزبدة الأحقاب والدهور لم تر العيون مثله ولا أنكرت الأعيان فضله وكيف ينكر وهو المزن يحمد بكل لسان وكيف يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان .

وقال الصفدي :

كان يلقب بجاحظ زمانه وتما نيفه الأدبية كثيرة إلى الغاية .

وقال ابن الأنباري في نزهة الألبا : .

وأما أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي فإنه كان أديبا فاضلا فصيحاً بليغاً .

وقال الحصري في كتابه زهر الآداب : .

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا وهو فريد دهره وقريع عصره ونسيج وحده وله مصنفات في العلم والأدب نشهد له بأعلى الرتب .

وفيه يقول أبو الفتح علي بن محمد البستي : .

قلبي رهينٌ بنسابور عند أخٍ ... ما مثله حين تَسْتَقْري البلاد أخٌ .

له صحائف أخلاق مهذبةٍ ... من الحرجا والعلا والظرف تَنْتَسَخُ .

وقال ابن قلايس يُّطري كتابه " يتيمة الدهر " أشعاراً منها : .

كُتِبَ القَرِيبُ لآلي ... نُظِمَتْ على جَيدِ الوجود .

فَضِلُّ اليتيمة بينها ... فضل اليتيمة في العقود .

ومنها : .

أبيات أشعار اليتيمة ... أبيات أفكار قديمة .

ماتوا وعاشت بعدهم ... فلذاك سميت اليتيمة .

وكتب أبو يعقوب صاحب كتاب البلاغة واللغة يقرط كتاب " سحر البلاغة " للثعالبي : .

سَحَرَتِ الناسَ في تأليف " سحرك " ... فجاء قلادةً في جيد دهركَ .

وكم لك من معانٍ في معانٍ ... شواهد عند ما تَعْلُو بِقدرك .

وُقِرَّتْ نوائب الدنيا جميعاً ... فأنت اليوم حافظ أهل عصركَ .

ورثاه الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد النيسابوري فقال : .

كان أبو منصور الثعلبي ... أبرع في الآداب من ثعلبٍ .

ليت الردى قدَّ مَنِي قبله ... لكنه أروغ من ثعلبٍ .

يطعن من شاء من الناس بال ... موت [بالموت] كطعن الرمح بالثعلب .

هذه طائفة من القول تدل على مكانة الثعالبي عند المتقدمين نجتزئ بها ونقف عندها . ثم

لعل في هذه الطُّرفة التي جرت بينه وبين سهل بن المرزبان ما يعطيك صورة عن الثعالبي

شاعراً : .

قال الثعالبي : قال لي سهل بن المرزبان يوماً : إن من الشعراء من شَلَّ شَلٍّ ومنهم من

سَلَّ سَلٍّ ومنهم من قَلَّ قَلٍّ ومنهم من بَلَّ بَلٍّ { يريد بمن شلشل : الأعشى في قوله : .

وقد أروح إلى الحانوت يتبعني ... شاوٍ مَشَلَّ شَلُولُ شُلَّ شُلُّ شَوَلُ .

وبمن سلسل : مسلم بن الوليد في قوله : .

سُلَّاتٌ وَسُلَّاتٌ ثُمَّ سُلَّ سَلِيلُهَا ... فَأَتَى سَلِيلُ سَلِيلِهَا مَسْلُولا .

وبمن قلقل : المتنبي في قوله : .

فَقَلَّ قَلَّاتٌ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَّ قَلَّ الْحَشَا ... قَلَّ قَلَّ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ قَلَّ قَلَّ { .

فقال الثعالبي : إني أخاف أن أكون رابع الشعراء { أراد قول الشاعر : .

الشعراء فاعلمنَّ أربعة ... فشاعر يجري ولا يُجرى معه .

وشاعر من حقه أن ترفعه ... وشاعر من حقه أن تسمعه .

وشاعر من حقه أن تصفحه { .

ثم إني قلت بعد ذلك بحين : .

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها ... فانفِ البلابل باحتساء بلابل .

فكان بهذا رابع فحول ثلاثة لهم القدم الثابتة في الشعر نعني الأعشى ومسلم بن الوليد

والمتنبي : .

وما دمنّا قد عرضنا للثعالبي الشاعر فما أولانا أن نذكر جملا مختارة من شعره قال C وكتب

بها إلى الأمير أبي الفضل الميكالي : .

لك في المفآخر معجزات جمّة ... أبدا لغيرك في الوري لم تُجمّع .

بحران بحر في البلاغة شابه ... شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي .

وتَرَسَّطُ الصابي يزِين عُلُوَّه ... خط بن مقلّة ذو المقام الأرفع .

كالنور أو كالسحر أو كالبدْر أو ... كالوشى في برد عليه موشّع .

وإذا تَفَتَّقَ نورُ شعرك ناصِراً ... فالحسن بين مصرّعٍ ومُرمّصٍ .

أرجلت أفراس الكلام ورُضّت أف ... راس [أفراس] البديع وأنت أمجد مبدع .

ونقشت في مغنى الزمان بدائعاً ... تُزري بآثار الربيع المُمّرع .

ومنها يصف فرسا أهّاه إليه : .

يا واهب الطّرف الجواد كأزّما ... قد أنعلوه بالرّيح الأربع .

لا شيء أسرع منه إلا خاطري ... في وصف نائلك اللطيف الموقّع .

ولو أني أنصفت في إكرامه ... لجلال مُهديه الكريم الألمعي .

أقضمت حب الفؤاد لحبّه ... وجعلت وربطه سواد الأدمع .

وخلعت ثم قطعت غير مضيّع ... برد الشباب لجُلّاه والبرقُوع .

ومن غزلياته الرقيقة : .

سقطت لحين في الفراش لزمته ... أضْم إلى قلبي جناح مَهِيض .

وما مرض بي غير حبّي وإنما ... أَدَلَّسُ منكم عاشقا بمريض .

وقال الباخري : أنشدني والدي قال أنشدني - يريد الثعالبي - لنفسه : .

عَرَكَتْ نَدِي الْأَيَّامِ عَرَكَ الْأَدِيمِ ... وَتَجَاوَزَنِي بِمَدَى التَّقْوِيمِ .
وَعَظَمْتُ لَهَا مَذْيَإَ إِلَّا ... عَنْ هَلَالِ يَرْنُو بِمَقْلَةٍ رِيمِ .
لَحْظُهُ سَقْمٌ كُلُّ قَلْبٍ صَحِيحٌ ... ثَغْرُهُ بُرْءٌ كُلُّ جَسْمٍ سَقِيمِ .
وَلَهُ أَيْضًا فِيمَا يَتَّصِلُ بِالْخَمَرِيَّاتِ : .
هَذِهِ لَيْلَةٌ لَهَا بِهَجَّةُ الطَّاسِ ... وَوَسَّ حَسَنًا وَاللَّيْلُ لَوْنُ الْعُذَافِ .
رَقْدُ الدَّهْرِ فَانْتَبَهْنَا وَسَارِقٌ ... نَاهٍ [وَسَارِقُنَاهُ] حَظًّا مِنَ السُّرُورِ الشَّافِي .
بِمُدَامٍ صَافٍ وَخَلٍّ مُصَافٍ ... وَحَبِيبٍ وَاقٍ وَسَعْدٍ مُوَافِي .
وَكُتِبَ إِلَى أَبِي نَصْرِ سَهْلِ بْنِ الْمَرْزَبَانِ يَحَاجِيهِ : .
حَاجِيَتُ شَمْسِ الْعِلْمِ فِي ذَا الْعَصْرِ ... نَدِيمُ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ نَصْرِ .
مَا حَاجَةٌ لِأَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ... فِي كُلِّ دَارٍ وَبِكُلِّ قُطْرٍ .
لَيْسَتْ تَرَى إِلَّا بُعِيدَ الْعَصْرِ .
فَكُتِبَ إِلَيْهِ جَوَابُهُ : .
يَا بَحْرَ آدَابٍ بِغَيْرِ جَزْرٍ ... وَحِظُهُ فِي الْعِلْمِ غَيْرُ نَزْرٍ .
حَزَرْتُ مَا قُلْتَ وَكَانَ حَزْرِي ... أَنْ الَّذِي عَنَيْتَ دُهُنُ الْبَزْرِ .
يَعَصُرُهُ ذُو قُوَّةٍ وَأَزْرٍ .